المحاضرة السابعة : الفرق بين الزمن الطبيعي والزمن الإنساني 2

3 ـ الزمن الإنساني الخلاّق

إن قيمة الإنسان في الزمن المقيد لا يمكن على الإطلاق أن تستمد من هذا الزمن، لأنه هو ذاته لا قيمة له بذاته، وإنما يستمد قيمته من زمن آخر، ولن يكون من الممكن إعطاء الوجود الإنساني قيمة جوهرية إن استبعدنا من وجوده البعد الغيبي مصدر القيمة المطلقة لوجوده، وعلى هذا، فإن قيمة الوجود الإنساني الحقة على مستوى الفرد كما على مستوى الجماعة مستمدة من النظام الزمني المطلق، ولا يعد الإنسان شيئاً إذا ما قيس بالزمن المقيد، على حين أنه بالقياس إلى النظام الزمني المطلق، عظيم وخالد، بل هو أعظم من الكون الخاضع للنظام الزمني المقيد الزائل، ولعل عظمته هذه إنما تظهر لنا في حقيقتها غير متناهية، لأنها نابعة من النظام المطلق الذي يحمله في داخله بالقوة من جهة النفخة الإلهية والإشهاد والاستخلاف والعبودية، وهو ليس بحاجة إلى اكتسابها، وإنما هو بحاجة فقط إلى اكتشافها ومعرفتها، وعلى ذلك فإن الله واجب الوجود بذاته، على حين أن الإنسان من بين كل المخلوقات الممكنة الوجود، واجب الوجود بغيره، وذلك لاستمداده معنى وجوده الحق من الله إذا أردنا الحديث عن الزمن الإنساني المطلق يتبادر إلى أذهاننا ذلك الزمن الذي يحتكم إليه أفراد المجتمع في قياس جملة الأحداث التي يقومون بها سواء كانت دينية أو على شكل عادات وتقاليد وذكريات، في بالنسبة لهم تتعلق أكثر بكتابة مرحلة تاريخية من مراحل حياتهم . حيث يطلق على هذا الزمن التاريخي اسم التقويم ، فلقد عرفت المجتمعات منذ الأزمنة الغابرة أهمية اختيار حدث تاريخي صنعه الإنسان واعتباره منطلقا للتاريخ، فالرومان مثلا يؤرخون لتأسيس مدينة روما بداية للتاريخ، أي بسنة 753 ق م، أما المسيحيون فيؤرخون بميلاد المسيح ، أما المسلمون فؤرخون بهجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة، والمصادفة ل 16 جويلية 622 م كبداية للتاريخ الإسلامي، وهذا يعني أن التاريخ الإنساني ليس واحدا ثابت كما هو الحال في التاريخ الطبيعي، بل كل قوم لهم تقويمهم التاريخي الخاص بهم ، فيعطي دوركايم البعد الاجتماعي للزمن الإنساني، حيث يعتبر أن الجماعة هي المركز الأول المنشئ للزمن، لأن الزمن لا ينفصل عن دورة النشاطات الاجتماعية، الرئيسية، وما الزمن الطبيعي الذي يتجسد في الفصول الطبيعية التي هي الأخرى قد تحولت

بفضل الجماعة إلى مواسم وأعياد ومناسبات ومقاطع وظيفية لازمة للحياة الاقتصادية والاجتماعية .[1]

الزمن الإنساني والتاريخ عند هيجل : لقد ربط هيجل بين الزمن والتاريخ ربطا محكما، حيث لا يوجد زمن إلا بقدر ما يوجد تاريخ، فيتحدد الوجود الإنساني به، على اعتبار أن هيجل لم يتناول الزمن بالشكل الذي كان قد تناوله به أفلاطون وأرسطو وأوغسطين، بل الزمن الهيجلي زمن إنساني قوامه التاريخ، بصفته تاريخ يتعلق بالحوادث الإنسانية، غير أن المنهج الذي يسير بمقتضاه التاريخ أو الزمن، هو المنهج الجدلي، الذي يعتمد في حقيقته على خطوات ثلاث: القضية ونقيضها والمركب بينهما أو الصيرورة، التي تتحول بدورها إلى قضية في حالة تغلب النقيض على القضية، حيث ينطبق هذا التصور الجدلي على كل الظواهر الموجودة في الكون، شأنها في ذلك شأن البذرة التي تنفي ذاتها، وتعطي الساق الذي يختلف كلية عن البذرة، لتأتي السنبلة بعد ذلك بوصفها مركب بينهما، فهي من ناحية تحمل خصائص البذرة، لأنها تحمل بذور، ومن جهة ثانية تشبه الساق في الاستطالة.[2]

لقد كان تقدم التاريخ أو الزمن الإنساني هو تقدم غير معكوس، أي أنه لا يتراجع إلى الوراء، ولا ينتكس على عقبيه، فالروح التي تسري بداخله، وتريد أن تتجلى، متخذة البشر والأبطال والزعماء، مجرد أدوات لتحقيق ذاتها. تريد أن تتجلى من خلال نمو الوعي بالحرية، فالتاريخ في نظر هيجل له ثلاثة عصور: العصر الشرقي والعصر اليوناني الروماني، والعصر الجرماني، فالحرية تمثلت في العصر الأول، ألا وهو العصر الشرقي، أما في العصر الثاني، أي العصر اليوناني والروماني، فتمثل في الحاكم المستبد، الذي تجلى في النظام السائد. أما في العصر الثالث أي العصر الجرماني، فتمثل في الإنسان من حيث هو إنسان.[3] وهذا يعني أنه في المجتمعات الشرقية، كان هناك فرد واحد يعتبر حرا، هو الملك، ولكن في المجتمعات اليونانية والرومانية، إذ لأصبح المجتمع ثنائيا، يتكون من طبقة السادة وطبقة العبيد، أصبحت الحرية مفهوما أكثر

---

1 ـ عبد الحميد زايد : **مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة** ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1988 ، ص19 .

2 ـ أحمد محمود صبحي : **في فلسفة التاريخ**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1975، ص 206.

3 ـ ج ـ هرنشو : **علم التاريخ**، ترجمة: عبد الحميد العبادي، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1982، ص 71.

وضوحا وتجليا، حيث يشمل طبقة السادة. ولم تصل الحرية إلى مرحلة الوعي الكامل إلا لدى الأمة الجرمانية، حيث تمثل ذلك في الدولة البروسية، ويعود الفضل في ذلك إلى الديانة المسيحية، التي أخرجت المجتمع الجرماني، من مرحلة الظلام والعبودية إلى مرحلة النور والحرية.[4] لقد تجسدت قمة الوعي في المرحلة الجرمانية، حيث عمل الوعي الجرماني على بناء الإنسان كإنسان.

4 ـ الزمن الطبيعي التكراري :

الزمن الطبيعي هو ذلك الزمن الذي يستخدمه الفيزيائيون وعلماء الفلك، إذ يشكل طرفا جانبا حسابيا كميا في حساب الحركات الطبيعية مثل حركة النجوم والأجسام المادية أثناء الحركة . حيث يرجع هذا التقويم بالأساس إلى عهد اليونان، الذين انصب جل اهتمامهم بالفلك ، والأجرام السماوية ، والواضح أن الشيء الذي جعلهم يتصورون الحركة المتقطعة إلى لحظات هو من السكون هو منظر النجوم والكواكب في حد ذاتها، حيث يراها الإنسان في حركة دائمة، تتبدل من يوم إلى آخر، غير أننا إذا نظرنا إليها في كل لحظة رأيناها ساكنة .

لقد عرف أرسطو الزمن على أنه عدد الحركة حسب السابق و اللاحق، حيث يمكن تقسيم الزمن الطبيعي إلى آنات متعاقبة ومتتالية، حيث أن الآن بالنسبة للزمن مثل النقطة بالنسبة للخط المستقيم، فالزمن الطبيعي إذن هو زمن ثابت وعقيم، لأنه يخضع لحتمية ميكانيكية مطلقة لا مجال فيها للحرية ، فكل آن بصفته وحدة من وحدات الزمان هو سبب ونتيجة ، سبب للآن الذي يأتي بعده ، ونتيجة للآن الذي كان قبله . إذ أن هذه التصورات العلمية للزمن تمثل قمة العلم الميكانيكي الكلاسيكي، الأمر الذي أدى **بلابلاس** Pierre-Simon de Laplace (1749 - 1827) إلى القول : « لو استطاع عقل ما أن يعلم في أي لحظة معينة جميع القوى التي تحرك الطبيعة، وموضع كل كائن من الكائنات التي تتكون منها، ولو كان في السعة بحيث يخضع هذه المعطيات للتحليل الرياضي، لاستطاع أن يعبر بصيغة واحدة بعينها عن حركات أكبر الأجسام في الكون ، وعن حركات أخف الذرات وزنا، و لكان علمه أكيد ولأصبح المستقبل ماثلا أمام

4 ـ أحمد محمود صبحي: **في فلسفة التاريخ**، مرجع سابق، ص 208.

ناظريه كالماضي تماما »[5]. وقد كان يقصد بذلك أن الزمن الطبيعي، ماهو إلا انسجام بين قوانين حتمية، لا تتغير مهما تغير الزمان والمكان.

5 ـ من الزمن الطبيعي إلى الزمن الإنساني :

إن حياة الإنسان تسير وفق صيرورة عبر الزمن ، وزمن الصيرورة الإنسانية ليس له علاقة بزمن الطبيعة . فالزمن الطبيعي معروف بالتكرار الآلي المحض ، غير أن الزمن الإنساني فخلاق ومبدع ، وهذا ما جعل الزمن الإنساني يأخذ خاصية التغير والتبدل ، يقول **غاستون باشلار**Gaston Bachelard (1884 – 1962) : « إننا ندرك الآن حدسا لكننا نسعى إلى فهم مسار الزمن بوصفه صيرورة فهما عقليا ... إن وعي الزمن هو دائما بالنسبة للإنسان وعي باستخدام الآنات ، فهو وعي فعال على الدوام وليس سلبيا أبدا . وعموما فإن وعي ديمومتنا هو وعي لتطور في ذاتيتنا الحميمة سواء كان هذا التطور فعليا أو مفتعلا أو مرغوبا .»[6] ففي كل مرحلة من مراحل تطوره يمارس الانسان عملية تجاوز لوضعه ولذاته ، إنه ينكر ذاته ويتجاوزها طيلة مراحل ديمومته ، إنه يعيش الزمان ديالكتيكيا .

غير أن **بول فاليري** *Paul Valéry* (1871 -1945 م) يرى بأن ما يمنح الزمن قيمته وثراءه هو الجانب الإنساني الحي بالضبط ، ولو قمنا بتجريد التاريخ من هذا العنصر الزماني الحي، لوجدنا أن مادته نفسها أي التاريخ الخالص، المؤلف من الوقائع فحسب، ومن وقائع لا جدال فيها غير ذات معنى ... حيث يأتيها المعنى من الزمن الإنساني الذي يتصل بها فيعيرها مكانا من سجل حوادث الإنسان الماضية .[7]

---

5 ـ لابلاس نقلا عن : هنري برغسون : **التطور الخالق** : ترجمة : محمود محمد قاسم ، مراجعة نجيب بلدي ، الجمهورية العربية المتحدة ، ص50 .

6 - Gaston Bachelard: **L'Intuition de l'Instant**, Introduction a la poétique de Bachelard, Editions Stock, coll. Livre de poche, La quatrième de couverture, Paris, 1992.P43.

7 - Paul Valery : **Variétés V** ,Paris Gallimard, S.P, Paris, PP 134 – 135 .